إنّ سباً بدلاً مِنْ أن تشكر لله تعالى نعمه وآلاءه كفرت تلك النّعم وبَطِرت معيشتها ودعت الله تعالى أن يباعد بين أسفارها وأن يجعل الشّقّة بعيدةً وشاقّة بين القرى كي تظْلم الفقير والضعيف وتحمل المسافر على دفع الثّمن باهظاً والمَكْس(١) عالياً، وظلموا أنفسهم بدعاء الله تعالى على أنفسهم أن يجعل العَرَض القريب والسّفر القاصد مطلباً عزيزاً وشقّةً بعيدة. لقد عاقبهم الله تعالى فبدّد شملهم ومزّقهم كلّ ممزّق وجعلهم حديث المسافرين والمقيمين، يضربون بهم المثل في الشّتات بعد الاجتماع، والضّياع بعد الوئام فيقال : ذهبوا أيدي سبأ، وتفرّقوا أيدي سبا. إنّ فيما حدث لسبأٍ لآياتٍ وعظاتٍ لكلّ المؤمنين الشّديدي الصّبر على البلاء والطّاعات وعن المعاصي، الكثيري الشّكر لله تعالى الوهّاب المنعم المتفضّل.

ولقد صدّق إبليس اللّعين على سبأ ومن شاكلهم ظنّه بغير علمٍ حينما توعّد بني آدم بأن يضلّهم عن سواء السّبيل إلاّ عباد الله تعالى المخلَصين. لقد اتّبع أكثر النّاس اللّعين فقادهم إلى مهاوى الرّدى ونجّى الله تعالى الفريق من المؤمنين وعباده الصّالحين. وما كان للّعين على الضّالين من حجّة يضلّهم بها سوى تسليط الله تعالى للّعين عليهم، ليعلم عزّ وجلّ علم ظهور الّذى يؤمن بالآخرة ويعمل لها فيطيع الله تعالى، والّذى هو من الآخرة في شكٍّ فيعصى الله تعالى. وربّك يا محمّد ويا أيّها الإنسان حفيظٌ على كلّ شيء ففز باللّجوء إلى كنفه، والعمل بما يحبّ ويرضى كي تفوز في الآخرة بالنّعيم المقيم في جنّات النّعيم.

---

(١) المَكس : دراهم كانت تؤخذ من بائعي السّلع في الجاهليّة والجمع مُكوس.

(٤)

« الآلهة المزعومة عاجزةٌ في الأولى والآخرة، والله تعالى قادرٌ على كلّ شيء، فآمنوا به، وبرسوله، وبقرآنه، وباليوم الآخر، وإلاّ كان العذاب أليما»

الآيات (٢٢-٣٣)

إذا كان إبليس اللّعين قد صدّق ظنّه بشأن سبأٍ الّذين بدّلوا نعمة الله تعالى كفراً وأحلّوا قومهم دار البوار فإنّ مثل هذا التّصديق قد حصل بشأن كفّار مكّة الّذين لم يتعّظوا بما حلّ بالمكذّبين السّابقين والّذين يتحوّل السّياق للحديث عنهم. يؤمر عليه الصّلاة والسّلام ابتداءً بأن يقول للكافرين ادعوا الّذين زعمتم أنّهم آلهة وعبدتموهم من دون الله تعالى كي تتبيّنوا أنّهم لا يملكون وزن أصغر نملةٍ في السّماوات ولا في الأرض، وأنّهم ليس لهم فيهما شيءٌ على سبيل الشّراكة، وأنّ الله تعالى ليس له من هؤلاء العاجزين من معين. ويوم القيامة لا تنفع الشّفاعة إلاّ لمن أذن الله تعالى أن يشفع لمن رضي الله تعالى عنه بأن شهد في الدّنيا أنّه لا إله إلاّ الله. حتّى إذا زال الفزع عن قلوب الملائكة الّذين غُشي عليهم لسماع صوت الحقّ بالوحي، قال بعض الملائكة لبعضٍ على سبيل الاستبشار بالإذن بالشّفاعة ماذا قال ربّكم عزّ وجلّ؟ قالوا قال القول الحقّ فأذن بالشفاعة لمن رضي عنه. إنّه عزّ وجلّ هو العليّ الأعلى من كلّ عال، الكبير الأكبر من كلّ كبير.

ويؤمر عليه الصّلاة والسّلام أن يقول للكافرين مجموعةً من التّوجهات القرآنيّة والهدى السّماويّ كي يضيفوا إلى توحيد الرّبوبيّة الّذى لم ينفعهم توحيد الألوهيّة بإفراد الله تعالى بالعبادة. قل يا محمّد للمشركين من يرزقكم من

السّماوات والأرض. والجواب الّذى لا جواب سواه معروف : ﴿قل الله﴾ ثمّ الأسلوب الرّفيع في أدب الدّعوة إلى الله تعالى في إنصاف الخصم : ﴿وإنّا أو إيّاكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين﴾ ثمّ يزداد الأسلوب رفعة بهضم الدّاعية نفسه وعدم إهاجة الخصم عليه : ﴿قل لا تُسْألون عمّا أجْرَمْنا ولا نُسْأل عمّا تعملون﴾ ثمّ يتمّ التحوّل إلى يوم القيامة الّذى يفصل الحقّ جلّ وعلا فيه بين الخصوم : ﴿قل يجمع بيننا ربنا ثمّ يفتح بيننا بالحقّ وهو الفتّاح العليم﴾ ومن البيّن أنّ الّذى يؤمر بأن يقول كلّ ذلك هو محمّد بن عبد الله ﷺ الأسوة الحسنة للمؤمنين وفي مقدّمتهم الدّعاة إلى الله تعالى. ويؤمر عليه الصّلاة والسّلام أن يقول لأولئك المشركين : أروني الّذين ألحقتموهم بالله تعالى فأشركتموهم به عزّ وجلّ في العبادة ماذا خلقوا على سبيل الاستقلال أو الاشتراك كي يستحقّوا أن يعبدوا : ﴿كلاّ﴾ ارتدعوا أيّها المشركون عن شرككم. : ﴿بل هو الله العزيز الحكيم﴾ إنّه هو وحده المستحقّ أن يفرد بالعبادة لأنّه له وحده دون سواه الخلق والأمر.

وما أرسل الله تعالى محمّداً ﷺ إلاّ للنّاس أجمعين مبشّراً المؤمنين بجنّات النّعيم، ومنذراً الكافرين بنار الجحيم، ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون هذه الحقائق، وفي مقدّمتهم كفّار مكّة.

ويصرّ كفّار مكّة على إنكار يوم القيامة : ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ ويكون الجواب من الحقّ عزّ وجلّ : ﴿قل لكم ميعاد يومٍ لا تستأخرون عنه ساعةً ولا تستقدمون﴾.

ويصرّ كفّار مكّة على عدم الإيمان بالقرآن الكريم، ويصوّر السّياق الكرب الشّديد الّذى سيكون فيه الأتباع والمتبوعون من المشركين يوم القيامة. لقد قال الّذين كفروا بكلّ وقاحة وقباحة : لن نؤمن بهذا القرآن الّذى يقرّر البعث بعد الموت، ولا بالكتب السّماوية السّابقة الّتى تقول بذلك، لأنّا لا نصدّق بأنّ ثمّة بعثاً بعد الموت. ويخاطب الحقّ جلّ وعلا حبيبه ﷺ ويقول له : ولو ترى يا محمّد إذ الكافرون موقوفون عند ربّهم عزّ وجلّ للحساب ويتبادل التّابعون والمتبوعون التّهم لرأيت أمراً عجباً. يقول الأتباع الّذين استُضْعِفوا للمتبوعين الّذين استكبروا وعتَوْا

وتجبّروا : ﴿لولا أنتم لكنّا مؤمنين﴾ : ﴿قال الّذين استكبروا للّذين استُضْعِفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين﴾ وقال المستضعفون للمستكبرين بل مكركم بنا في آناء اللّيل وأطراف النّهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله تعالى وبأن نجعل له أنداداً وشركاء هو الّذى هوى بنا في مهاوى الرّدى. وأسرّ الفريقان النّدامة لمّا رأوا العذاب خوف التّعيير، وجعلنا الأغلال في أعناق الّذين كفروا وأيديهم والسّلاسل في أرجلهم يسحبون بها إلى النّار وبئس القرار. وهكذا عاقب الله تعالى الكافرين بأعمالهم السّيّئة ويعاقب كلّ كافرٍ وكفور.

(٥)

«تسلية النّبيّ ﷺ، وبيان أنّ التّرف سبب الكفر والكفران وتكذيب خير الأنام وطاعة الشّيطان. فعلى كفّار مكّة تدبّر الأمر قبل فوات الأوان، وإلاّ كان المصير كالسّابقين» الآيات (٣٤-٥٤)

تسلية المصطفى ﷺ وتثبيت فواده عليه الصّلاة والسّلام من أهداف هذا القسم الأخير من السّورة الكريمة. يبيّن ربّ العزّة والجلال أنّه ما أرسل في قريةٍ من القرى من نذيرٍ إلاّ قال مترفو تلك القرى للمرسلين : ﴿إنّا بما أرسلتم به كافرون﴾ فليس محمّدٌ ﷺ هو الرّسول الوحيد الّذى كُذّب، وليس قومه عليه الصّلاة والسّلام هم وَحْدَهم الّذين كذّبوا وتعنّتوا. وقال أولئك المترفون نحن أكثر أموالاً وأولاداً من المؤمنين دليلاً على فضلنا، وما نحن بمعذّبين بعد الموت لأنّه ليس ثمّة بعثٌ ولا حساب. قل لهم أيّها الرّسول الكريم وأيّها المؤمن : إنّ ربّي يبسط الرّزق لمن يشاء أن يوسّع عليه، ويضيّق على من يشاء أن يضيّق عليه، لحكمةٍ بالغةٍ،

ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون هذه الحكمة فيعتقدون أنّ بسط الرّزق دليل الكرامة على الله تعالى، وأنّ ضيق الرّزق دليل الهوان على الله تعالى. وما أموالكم أيّها النّاس الّتى تفخرون بها، ولا أولادكم الّذين تستكبرون بهم، بالّتى تجعلكم أكثر قرباً من الله تعالى. لكن من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم الثّواب المضاعف إلي سبعمائة ضعف فأكثر، بسبب أعمالهم الصّالحة الّتى عملوا، وهم في الغرفات العالية بالجنّة آمنون. أمّا الّذين يجتهدون في إبطال آيات الله تعالى البيّنات وحججه ظانّين عجز الّذات العليّة عن عقابهم فأولئك يوم القيامة محضرون في العذاب.
قل يا محمّد إنّ ربّى يبسط الرّزق لمن يشاء من عباده اختباراً لهم أيشكرون لله تعالى نعمه وآلاءه أم يكفرون، ويضيّق على من يشاء من عباده ابتلاءً لهم أيصبرون على البلاء والطّاعات وعن المعاصى أم يجزعون. أمّا المؤمنون الّذين ينفقون في سبيل الله تعالى وفيما أمرهم أن ينفقوا من أوجه البرّ فإنّ الله سبحانه وتعالى يخلفه عليهم في الأولى بالبدل، وفي الآخرة بالثّواب الجزيل.

وفي يوم القيامة يحشر الله تعالى النّاس أجمعين ثمّ يقول للملائكة أهؤلاء المشركون كانوا إيّاكم يعبدون في الدّنيا؟ قال الملائكة الأطهار : تنزيهاً لك عن كلّ ما ألحق بك الظّالمون ممّا لا يليق بجلالك وعظمتك، أنت مولانا من دونهم، فلا موالاة بيننا وبينهم ولا مودّة. بل كانوا يطيعون الشّياطين الّذين كان أكثرهم بهم مؤمنين والّذين ورّطوهم في الشّرك. في ذلك اليوم لا يملك بعضهم لبعض نفعاً ولا ضراً ويقول الحقّ جلّ وعلا لهم : ذوقوا عذاب النّار الّتى كنتم بها تكذّبون.

وإذا تُتلَى ايات الله تعالى البيّنات قال الكافرون ليس هذا الرّجل الّذى يدعوكم إلى توحيد الله تعالى إلاّ رجلاً يريد أن يصدّكم عمّا كان يعبد آباؤكم من أصنامٍ وأوثان، وقالوا ما هذا القرآن إلاّ كذبٌ مختلق، وقال الّذين كفروا للحقّ لمّا جاءهم في هيئة القرآن الكريم والنّبيّ العظيم ما هذا إلاّ سِحْرٌ مبين. والله سبحانه وتعالى ما آتى كافرى مكّة وكافرى العرب من كتبٍ يدرسونها وما أرسل عزّ وجلّ إليهم من نذير قبل محمّد ﷺ. وقد كذّب الّذين من قبل كفّار مكة رسلهم وما بلغ كفّار مكة عشر ما أعطى الله تعالى الأمم السّابقة، وحينما كفروا كان إنكار الله تعالى عليهم شديداً، وأخذه لهم أكيداً.

ويأمر الحقّ جلّ وعلا حبيبه ﷺ أن يقول للكافرين بعض النّصائح والفوائد والتّوجيهات. قل يا محمّد للكافرين إنّما أعظكم بمسألةٍ واحدة، هي أن تقوموا اثنين اثنين وواحداً واحداً ثمّ تتفكّروا في حال صاحبكم محمّد كي تتبيّنوا أنّه عليه الصّلاة والسّلام ليس به جنون. ما هو إلاّ نذيرٌ لكم بين يدي عذاب يوم القيامة الشّديد. قل يا محمّد للكافرين : ما سألتكم من أجرٍ على دعوتي لكم إلى سبيل الهدى فهو لكم لأنّي لم أطلب شيئاً. ما أجري إلاّ على الله تعالى الشّهيد على كلّ شيءٍ والحفيظ والوكيل. قل يا محمّد للكافرين إنّ ربّي عزّ وجل يقذف بالوحي على حبيبه ﷺ ويوحي بالحقّ، وهو عزّ وجلّ وعلا علاّم الغيوب. قل يا محمّد للكافرين جاء الحقّ وزهق الباطل وما يستطيع الباطل أن ينشىء خلقاً جديداً ولا أن يحيي الموتى. قل يا محمّد للكافرين إن ضللت عن سواء السّبيل فإنّما أضلّ على نفسي لأنّ ضرر ذلك عائدٌ إليّ، وإن اهتديت فبما يوحي إليّ ربّي من قرآنٍ كريم وسنّةٍ مطهّرة. إنّه عزّ وجلّ سميعٌ لكلّ صوت وأقرب إلى الإنسان من حبلٍ الوريد.

ولو ترى يا محمّد الكافرين يوم القيامة إذ فزعوا من البعث فلا مهرب لهم ولا نجاة، وأخذوا من مكانٍ قريبٍ هو القبر. وقالوا بعد فوات الأوان آمنّا بالله تعالى وبكتابه وبرسوله وباليوم الآخر. وكيف ينفعهم هذا التّناول للإيمان في الزّمان والمكان البعيدين وغير الملائمين. لقد كفروا بكلّ ذلك من قبل في الحياة الدّنيا حيث ينفعهم الإيمان والعمل الصّالح، وهنالك قذفوا بالغيب ورجموا بالظّنّ في حقّ الرّسول الكريم فزعموا أنّه شاعرٌ وساحرٌ وكاهنٌ، وأنّ القرآن الكريم شعرٌ وسحرٌ وكهانة. لقد تمنّى الكافرون يوم القيامة الإيمان والعودة إلى الحياة الدّنيا كي يعملوا صالحاً فحيل بينهم وبين ما يشتهون كما حيل بين الكافرين السّابقين وبين ما يشتهون. لقد جَمَعَتْ بين الكافرين السّابقين واللاّحقين صفة الشّكّ في كلّ حقّ إلى حدّ الارتياب فاستحقّوا أليم العذاب.

التّفسير

(١)

(لله تعالى الحمد في الأولى والآخرة، وعذاب المنكرين للسّاعة، وثواب المؤمنين بها والعاملين من أجلها)

الآيات (١ ـ ٩)

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾

الحمد لله : الحمد هو الثّناء بالقول على المحمود بصفاته اللّازمة والمتعدّية. تقول : حَمِدته لفروسيّته وحمدته لكرمه(١).

سورة سبأ المكّيّة(٢) إحدى سورٍ خمسٍ مكّيّة، تبدأ بالقول : ﴿الحمد لله﴾ وهذه السّور هي الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر(٣) وتقرّر السّورة الكريمة في الآية الكريمة الأولى أنّ الثّناء العاطر كلّه لله تعالى الّذى له كلّ ما في السّماوات السّبع والأرضين السّبع، ملكاً وخلقاً وعبيداً. إنّ لله تعالى وحده دون سواه الثّناء في الأولى على نعوته اللّازمة والمتعدّية الّتى لا يحصيها عدّ، ولا يستطيع أن يعبّر عنها لسان، أو أن يحيط بها بيان. وإنّ لله تعالى وحده دون سواه الثّناء العاطر كلّه في الآخرة، لأنّ الخير كلّه ملك يديه. والله تعالى هو الحكيم في قوله وفعله وشرعه وقَدَره وفي كلّ شيء، وهو الخبير الّذى أحاط خُبْراً ببواطن الأمور كظواهرها. وكأنّ الآية الكريمة تتحدّث عن الملك والقدرة.

ويتجلّى في الآية الكريمة ثنائيّة المعانى. فالحمد لله تعالى في الأولى والآخرة، وله كلّ ما في السّماوات والأرض، وهو عزّ وجلّ الحكيم الخبير.

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣٧.

(٢) الإتقان ١/ ٤٣.

(٣) انظر الإتقان ١/ ٤٢و٤٣.

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ
وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ
الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾

يعلم ما يلج في الأرض : الولوج الدّخول في مَضيق(١) أي يعلم ما يدخل الأرض وما يغيب فيها من شيء من قولهم : ولجت في كذا إذا دخلت فيه(٢) أي يعلم عدد القطر النازل في أجزاء الأرض والحبّ المبذور والكامن فيها(٣).

وما يخرج منها : كنباتٍ وغيره(٤).

وما ينزل من السّماء : من قطرٍ ورزق(٥).

وما يعرج فيها : العُروج ذهابٌ في صعود(٦) أي يعلم ما يصعد في السّماء(٧) من الأعمال الصّالحة وغير ذلك(٨).

وهو الرّحيم : بأهل التّوبة من عباده أن يعذّبهم بعد توبتهم(٩).

الغفور : لذنوبهم إذا تابوا منها(١٠).

الآية الكريمة تتحدّث عن علم الله تعالى المطلق بعد حديث الآية الكريمة

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «ولج» ٢/ ٦٩٠.

(٢) تفسير الطّبري ٢٢/ ٤٢.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٨٢.

(٤) الجلالين.

(٥) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٨٢.

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «عرج» ٢/ ٤٢٧.

(٧) تفسير الطّبري ٢٢/ ٤٢.

(٨) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٨٢.

(٩) تفسير الطّبري ٢٢/ ٤٢.

(١٠) تفسير الطّبري ٢٢/ ٤٢.

السابقة عن ملك الله تعالى وقدرته المطلقين.

والآية الكريمة تتحدّث عن علم الله تعالى بما يلج في الأرض ويدخل من ماءٍ وبذور وما إليهما، وما يخرج منها من ماء ونباتٍ وما إليهما. ويعلم ما ينزل من السّماء من ماءٍ ورزقٍ وما إليهما، وما يَصْعَدُ في السّماء من كلمٍ طيّبٍ وعملٍ صالحٍ وما إليهما. وهو عزّ وجلّ الرّحيم بعباده الّذى يرشدهم إلى التّوبة ويقبلها منهم، الغفور لذنوبهم إذا استغفروا وأنابوا وعملوا صالحاً.

ونلاحظ بشأن الآية الكريمة ما لاحظناه في الآية الكريمة السّابقة من ثنائيّة المعانى. فالله تعالى يعلم ما في الأرض ويعلم ما في السّماء. والله تعالى يعلم ما يدخل في الأرض كما يعلم ما يخرج منها. ويعلم ما ينزل من السّماء كما يعلم ما يصعد فيها. والله تعالى هو الرّحيم الغفور.

وفي الآية الكريمة الإشارة الظاهرة والخفيّة إلى بعض نعم الله تعالى على النّاس. إنّ الله تعالى هو الرّحيم الّذى وسعت رحمته كلّ شيءٍ وسبقت غضبه، وهو الغفور لذنب كلّ من استغفر وتاب توبةً نصوحا. ويلاحظ مجيء الرّحيم والغفور في صيغتي المبالغة فعيل وفعول.

ومع أنّ خلق السّماء أكبر من خلق الأرض فإنّ الإنسان لمّا كان هو المعنيّ في المقام الأوّل وكانت علاقة الإنسان بالأرض متقدّمةً على علاقته بما وراء ذلك، وكانت الأرض قد احتاجت وَحْدَها للخلق وتهيئتها للإنسان أربعة أيّام من الأيّام السّتّة الّتى خلق الله تعالى فيها السّماوات والأرض فإنّ الحديث عمّا له عَلاقةٌ بالأرض تقدّم على ما له عَلاقةٌ بالسّماء. إنّ ما يعلمه الله تعالى ممّا يلج في الأرض ويخرج منها يتقدّم في الذّكر على ما يعلمه الله تعالى ممّا ينزل من السّماء وما يصعد فيها.

وانظر وراء ذلك إلى التّرتيب المنطقيّ لما يدخل في الأرض كالماء ولما يخرج منها كالنّبات. إنّ الماء سببٌ للنّبات فتقدّم في الذّكر، وإنّ النّبات مسبَّبٌ عن الماء فتأخّر. وكلا الماء والنّبات فضلٌ من الله تعالى، وكذلك كلّ نعمة.

وإنّ الشّيء ذاته يقال عمّا ينزل من السّماء من ماءٍ ورزقٍ للعباد، وما يَصْعَدُ

في السّماء من حمدٍ لله تعالى وشكر على تلك النّعم والآلاء. إنّ الماء والرّزق سببٌ لكلٍّ من الحمد والشّكر لله تعالى على نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة. وكما يصعد إليه عزّ وجلّ الكلم الطيّب والعمل الصّالح تصعد الملائكة، والرّوح جبريل عليه السّلام.

وحينما ننظر إلى ما يدخل في الأرض ويخرج منها وما ينزل من السّماء نتبيّن أنّه كلّه محض فضلٍ من الله تعالى. والإنسان حينما يكون شكوراً لله تعالى يصعد كلمه الطيّب إلى بارئه الّذى يرفع العمل الصّالح لعبده عنده جلّ وعلا. وهكذا يتقدّم كلّ ما هو محض فضلٍ من الله تعالى ويتأخّر ما يصحّ أن يكون للإنسان بعض مشاركةٍ فيه. وكلّ هذه المعانى غيضٌ من فيض فضل الله تعالى على النّاس. فلله تعالى وحده لا شريك له الحمد في الأولى والآخرة.

وانظر إلى إعجاز الآية الكريمة المعمّق لفضل الله تعالى على النّاس وذلك في القول: ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها﴾ إنّك تخفض بصرك حينما تنظر إلى الأرض وحينما تنظر إلى ما يدخل فيها. فثمّة انسجامٌ وتناغمٌ بين الأرض وما يدخل فيها يرتاح لهما البصر الّذى يحدوهما. ثمّ يأتى بعد ذلك ذكر المسبَّب الّذى حقّه التّأخير والمتمثّل فيما يخرج من الأرض.

وانظر إلى إعجاز الآية الكريمة المعمّق لفضل الله تعالى حينما رُوعي المعنى فتقدّم في الذّكر ما يؤكّد فضل الله تعالى بالإشارة إلى ما ينزل من السّماء ابتداءً. قال تعالى: ﴿وما ينزل من السّماء وما يعرج فيها﴾ إنّ البصر يرتفع في نظره إلى السّماء، فإذا رجع البصر كان مع ما ينزل من السّماء من ماءٍ مثلاً ومن رزقٍ ومن فضلٍ لله تعالى. إنّ كلّ ما يدخل في الأرض من ماءٍ وما يخرج منها من نبتٍ وما ينزل من السّماء من ماء تراه العين. وليس كذلك ما يعرج في السّماء ويصعد فيها. إنّ الانسجام المعنويّ وراء تقديم ما تبصره العين في نسق، وتأخير ما لا تراه العين وكان وحيدا.

ولعلّك بالإضافة إلى جلال المعنى تبيّنت جمال المبنى في الجارّين والمجرورين: «منها» و «فيها» من القول: ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج

منها وما ينزل من السّماء وما يعرج فيها﴾ وهذا صحيح. يضاف إلى ذلك تبادلُ المواقع لحرفي الجرّ «في» و «مِنْ» ممّا هو معمّقٌ للطّباق بين الأرض والسّماء، وللمقابلة بين ما يخصّ كلاًّ من الأرض والسّماء. قال تعالى: ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السّماء وما يعرج فيها. وهو الرّحيم الغفور﴾ والله تعالى أعلم.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ ۖ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾

بلى وربّى لتأتينّكم: بلى: حرف جواب لإثبات المنفيّ. الواو: واو القسم. ربّى: مجرور بالواو متعلّق بفعل محذوف تقديره أُقْسِم، اللّام: لام القسم. تأتينّكم: مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع. والنّون: نون التّوكيد. وكم: ضمير مفعول به(١).

لا يعزب عنه: لا يغيب عنه(٢).

مثقال: زنة(٣) ووزن(٤).

ذرّة: أصغر نملة(٥).

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٢٩٢.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٤٣.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٤٣.

(٤) الجلالين.

(٥) الجلالين.

إلاّ في كتابٍ مبين : بيّن هو اللّوح المحفوظ(١).

هذه إحدى الآيات الثّلاث اللّاتى لا رابع لهنّ ممّا أمر الله رسوله ﷺ أن يقسم بربّه العظيم على وقوع المعاد، لمّا أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد. فإحداهنّ في سورة يونس(٢) : ﴿ويستنبئونك أحقٌ هُو؟ قُلْ إى وربيّ إنّه لحقٌّ وما أنتم بمعجزين﴾ والثّانية هذه : ﴿وقال الّذين كفروا لا تأتينا السّاعة قل بلى وربّى لتأتينّكم﴾ والثّالثة في التّغابن(٣) : ﴿زعم الّذين كفروا أن لن يُبْعَثوا. قل بلى وربّى لتبعثنّ ثمّ لتنبّؤنّ بما عملتم وذلك على الله يسير﴾(٤).

إنّه على الرّغم من كلّ دلائل الملك المطلق لله تعالى والقدرة والعلم يستبعد كفّار مكّة يوم القيامة وينكرون قيام السّاعة. إنّ الّذين كفروا يقولون للنّبيّ ﷺ وعلى رءوس الأشهاد : ﴿لا تأتينا السّاعة﴾ إنّهم ينفون قيام السّاعة، وتجرى على لسانهم جملة : «تأتى» الّتى تُستَعْمَلُ في القرآن الكريم دليلاً على البعد. والمراد هنا البعد الزّماني. والمعنى أنّ السّاعة لن تأتينا أبداً ولن تقوم مطلقاً.

ويأمر الحقّ جلّ وعلا حبيبه ﷺ أن يجيبهم بما ينفى نفيهم وفي ذلك إثباتٌ لقيام السّاعة : ﴿قل بلى﴾ ثمّ يكون قَسَمٌ بربّ العزّة والجلال بأنّ السّاعة لآتيةٌ لا ريب فيها وأنّ الله تعالى يبعث من في القبور وسيعذّب المنكرين لها المستهزئين بها وسيدخلهم نار جهنّم. إنّ المصطفى ﷺ يقسم بربّه عزّ وجلّ عالم كلّ ما غاب عن المخلوقين. إنّه جل وعلا لا يغيب عنه وزن أصغر نملةٍ في السّماوات والأرض، ولا أصغر من تلك النّملة ولا أكبر منها. إنّ كلّ ذلك في كتابٍ مبين، هو اللّوح المحفوظ، المكتوب فيه كلّ شيء.

---

(١) الجلالين.

(٢) الآية ٥٣.

(٣) الآية ٧

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٨٢.

لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ
كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾

والّذين سعوا في آياتنا معاجزين : والّذين عملوا في إبطال أدلّتنا وحججنا(١) معاندين(٢) يحسبون أنّهم يسبقوننا بأنفسهم فلا نقدر عليهم(٣) ظانّين ومقدّرين أنّهم يُعْجزوننا(٤) لأنّهم ظنّوا أنّهم لا يبعثون وأنّه لا جنّة ولا نار(٥).

من رجز : من شديد العذاب(٦).

أليم : موجع(٧).

أحصى الله تعالى في الكتاب المبين كلّ الأعمال ليجزي الّذين آمنوا وعملوا الصّالحات ويثيبهم. أولئك لهم مغفرةٌ لذنوبهم، ورزقٌ كريم، وعيشةٌ هنيئةٌ، في جنات النّعيم.

أمّا الّذين اجتهدوا في إبطال أدلّتنا وحججنا ظانّين أنّهم يفوتوننا، مقدّرين أنّهم يُعْجزوننا، معتقدين أنّه ليس ثمّة جنّةٌ ولا نار، ثوابٌ ولا عقاب، فإنّ لهم شديد العذاب وأليمه في النّار، وبئس القرار.

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/٤٣.

(٢) لسان العرب : «عجز».

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/٤٣.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «عجز» ٢/٤١٩.

(٥) لسان العرب : «عجز».

(٦) تفسير الطّبرى ٢٢/٤٣.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٢/٤٣.

وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ
ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ
ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾

ويرى الّذين أوتوا العلم : الواو استئنافيّة(١) والّذين أوتوا العلم أصحاب رسول الله ﷺ(٢) وقيل هم مسلمة أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ونظرائه الّذين قد قرأوا كتب الله التى أنزلت قبل الفرقان(٣).

ويرى الّذين آتاهم الله تعالى العلم اللّدنّي من أصحاب محمّد ﷺ الّذين جاهدوا في الله تعالى فهداهم عزّ وجلّ سبله وزادهم إيماناً، يرى هؤلاء القرآن الكريم الّذى أنزله الله تعالى إلى حبيبه ﷺ هو الحقّ ويهدى إلى الطّريقة الّتى هي أقوم وإلى صراط الله تعالى العزيز في ملكه، المحمود على كلّ حال.

ويصحّ أن يكون الّذين أوتوا العلم هم الّذين آتاهم الله تعالى الكتاب السّماويّ من قبل القرآن الكريم. والمراد بالكتاب التّوراة الّتى أنزلها الله تعالى إلى موسى عليه السّلام. لقد آمن هؤلاء بكلٍّ من الكتابين السّماويّين كعبد الله بن سلام ونظرائه. وكأنّ الآية الكرية يفصّل معناها قول الحقّ جلّ وعلا(٤) : ﴿الّذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. وإذا يُتْلَى عليهم قالوا آمنّا به إنّه الحقّ من ربّنا إنّا كنّا من قبله مسلمين. أولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السّيّئة وممّا رزقناهم ينفقون. وإذا سمعوا اللّغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم لا نبتغى الجاهلين﴾.

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٢٩٤.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٤٤.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٤٤.

(٤) سورة القصص ٥٢-٥٥.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ
يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾
أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ
فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾

ينبّئكم إذا مـزّقتم كلّ ممزّق : يخبركم أنّـكم بعد تقطّعكم في الأرض بلاءً، وبعد مصيركم في التّراب رفاتاً[١] وعظاماً، وتقطيع السّباع والطّير لكم[٢] .

إنّكم لفى خلقٍ جديد : إنّكم عائـدون كهيئتكم قبل الممـات خلقاً جديداً[٣] ولولا اللّام في الخبـر لفتـحت همزة إنّ[٤] واللّام هي المزحلقة للتّـوكيد[٥] واللّام المزحلقة هي لام الابتداء بعـد إنّ المكسورة. وسميت مزحلـقة لأنّهم زحلقوها عن صدر الجملة كراهية ابتداء الكلام بمؤكّدين[٦].

أفترى : الهمزة للاستفهام. واستغنى بها عن همزة الوصل[٧].

أم به جنّه : جنونٌ تخيّل به ذلك[٨].

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٤٤.

(٢) انظر تفسير الطّبرى ٢٢/ ٤٤.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٤٤.

(٤) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٢٩٥.

(٥) لجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٢٩٥.

(٦) معجم النّحو عبد الغنى الدّقر ٣٠٦ الطبعة الرابعة ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م بيروت.

(٧) لجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٢٩٦.

(٨) الجـــلالين.

في العذاب: في عذاب الله في الآخرة[1].

والضّلال البعيد: وفي الذّهاب البعيد عن طريق الحقّ وقصد السّبيل[2].

وقال بعض الكافرين على سبيل التّعجّب ممّا سمعوا من النّبيّ ﷺ عن البعث والنشور والحساب والجزاء: هل ندلّكم على رجل، ونرشدكم إلى شخصٍ، ينبّئكم أنّكم إذا متّم ومزّقتكم الأرض كلّ ممزّق، وقطّعتكم السّباع والطّيور ودوابّ الأرض أشلاء، وغدوتم تراباً وعظاماً ورفاتاً، أنّكم عائدون أحياء خلقاً جديداً وميلاداً سعيداً!.

هل افترى هذا الرّجل على الله تعالى كذباً من القول فزعم أنّ بعد الموت بعثاً فحساباً فجزاءً أم أنّ بهذا الرّجل مسّاً من جنون وذهاباً للعقل، لذا هو يقول ما لا يعقل ويَهْرِف بما لا يَعْرِف.

الحقيقة أنّ محمّداً ﷺ صادقٌ فيما يقول لأنّه رسول ربّ العالمين، والحقيقة أنّ الّذين لا يؤمنون بالآخرة صائرون إلى عذاب الله تعالى الشّديد في الآخرة، وهم الآن في الضّلال البعيد، والانصراف الأكيد، عن صراط الله تعالى الحميد.

أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ
وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ
الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السّماء والأرض: أفلم ينظر هؤلاء المكذّبون إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السّماء والأرض فيعلموا أنّهم حيث كانوا فإنّ أرضي وسمائي محيطةٌ بهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن

---

(١) تفسير الطّبري ٢٢/٤٥.

(٢) تفسير الطّبري ٢٢/٤٥.

أيمانهم وعن شمائلهم فيرتدعوا عن جهلهم وينزجروا عن تكذيبهم بآياتنا(١).

كِسَفاً من السّماء : قطعاً من السّماء(٢) والمفرد كِسْفة على وزن قِطْعة(٣).

لِكلّ عبدٍ منيب : لكلّ عبدٍ أناب إلى ربّه بالتّوبة ورجع إلى معرفة توحيده والإقرار بربوبيّته والاعتراف بوحدانيّته والإذعان لطاعته(٤).

أعمي هؤلاء المنكرون للبعث عن قدرة الله تعالى فلم يروا بأعينهم الّتي في رءوسهم ولم ينظروا إلى ما يحيط بهم من السّماء والأرض في أيّ ناحيةٍ توجّهت إليها أبصارهم، أمامهم وخلفهم، عن يمينهم وشمالهم، فوقهم وتحتهم. إنّ القادر على خلق كلّ ذلك ابتداءً قادرٌ على خلقه عودة. إنّ عليهم أن يؤمنوا بالبعث والنّشور والحساب والجزاء، وبقدرة الله تعالى على فعل كلّ ذلك. أأمن هؤلاء المكذّبون إن استمرّوا على إنكارهم أن يَخْسِفَ الله تعالى بهم الأرض فتبتلعهم إن شاء، أو أن يسقط عليهم قطعاً من السّماء فتهلكهم. إنّ في هذا التّنبيه إلى بعض مظاهر القدرة المطلقة للذّات العليّة لآيةً دالّةً على قدرة الله تعالى، وعبرةً وعظةً لكلّ عبدٍ منيب إلى الله تعالى بالتّوبة، راجعٍ إليه بالاستغفار، مقبلٍ عليه بالطّاعة.

ويلاحظ تقديم السّماء في الذّكر مع الرّؤية لأنّ السّماء أكبر من الأرض وتلفت إليها النّظر ابتداءً. كما يلاحظ تقديم الأرض بشأن الخسف لأنّ الخسف أقرب تصوّراً وأكثر حدوثاً من سقوط أجزاءٍ من السّماء قطعا. وهكذا تستدعى المعانى الألفاظ في القرآن الكريم دائما.

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٤٥.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٤٥.

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «كسف» ٢/ ٥٥٧.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٤٥.

(٢)
(داود وسليمان
عليهما السّلام)
الآيات (١٠ ـ ١٤)

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ
يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾

فضلاً : نبوّةً وكتاباً(١).

يا جبال : وقلنا للجبال يا جبال(٢).

أوّبى معه : سبّحى معه إذا سبّح. والتّأويب عند العرب الرّجوع(٣) أي رجّعى مسبّحةً معه(٤).

والطّير : بالنّصب عطفاً على محلّ الجبال(٥) لأنّ لفظ جبال منادى نكرة مقصودة مبنيٌّ على الضّمّ في محلّ نصب(٦) وفي النّداء تُبنى النّكرة المقصودة على ما ترفع به(٧).

وألنّا له الحديد : ذُكِرَ أنّ الحديد كان في يده كالطّين المبلول يصرّفه في يده كيف يشاء بغير إدخال نار ولا ضرب بحديد(٨).

ولقد أعطينا داود عليه السّلام منّا فضلاً، نبوّةً وكتاباً وعلماً. وقلنا يا جبال سبّحى معه إذا سبّح ورددّى معه التّكبير والتّحميد والتّهليل، وافعلى يا طير ذلك

---

(١) الجلالين.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٤٥ والجلالين.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٤٥.

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٨٥ والجلالين.

(٥) الجلالين.

(٦) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٢٩٧.

(٧) معجم النّحو ٣٩٣.

(٨) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٤٦.

أيضاً. وألنّا له الحديد، فكان في يده كالطّين أو العجين، دون حاجةٍ لإدخاله في النّار أو الضّرب عليه بالمطارق.

وقد تظاهرت الآيات والأحاديث الصّحيحة على عظم فضل الله تعالى عليه[1] جاء في صحيحي البخارى ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنّه قال : قال رسول الله ﷺ: أحبّ الصّيام إلى الله صيام داود، وأحبّ الصّلاة إلى الله صلاة داود. كان ينام نصف اللّيل ويقوم ثلثه وينام سدسه. وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفرّ إذا لاقى[2] وممّا أعطاه الله تعالى من الفضائل الزّبور وحسن الصّوت. فلم يُعْطَ أحداً مثل صوته. وحُكِي من آثار صوته أشياء عجيبة منها تسخير الجبال والطّير لِلتّسبيح معه[3] ومنها إلانة الحديد له[4] وجاء في صحيحي البخارى ومسلم عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال : لقد خُفّف على داود القرآن فكان يأمر بدوابّه أن تُسْرَج فيقرأ قبل أن تُسْرَج دوابّه، ولا يأكل إلاّ من عمل يده. المراد بالقرآن الزّبور. وفي صحيح البخارى عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال : ما أكل أحدٌ طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإنّ نبيّ الله داود كان يأكل من عمل يده[5].

---

(١) تهذيب الأسماء واللّغات للإمام النّووى ١/ ١٨٠.

(٢) تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ١٨٠.

(٣) تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ١٨١.

(٤) تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ١٨١.

(٥) تهذيب الأسماء واللّغات ١/ ١٨٠.

أَنِ ٱعْمَلْ
سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١١﴾

أن اعمل سابغات : هذا إرشادٌ من الله لنبيّه داود عليه السّلام في تعليمه صنعة الدّروع(١) أي وقلنا اعمل من الحديد دروعاً توامّ كوامل يجرّها لابسها على الأرض(٢) وكان أوّل من صنعها داود. إنّما كانت قبل ذلك صفائح(٣) جمع صفيحة وهي كلّ عريضٍ من لوحٍ أو حجارة ونحوهما(٤).

وقدّر : قَدَرَ الشّيء بالشّيء يَقْدُره قَدْراً وقدّره: قاسه. والتّقدير التّروية والتّفكير في تسوية أمرٍ وتهيئته(٥).

في السّرد : السّرد في اللّغة : تَقْدمة شيءٍ إلى شيءٍ تأتي به متّسقاً بعضه في أثَر بعضٍ متتابعاً(٦) وقيل لأعرابيّ : أتعرف الأشهر الحرم؟ فقال : نعم، واحدٌ فَرْد وثلاثة سَرْد. فالفرد رجب، وصار فرداً لأنّه يأتي بعده شعبانُ وشهر رمضان وشوّال. والثلاثة السّرد : ذو القعدة وذو الحجّة والمحرّم(٧). والسّرْد خَرْز ما يَخْشُن ويَغْلُظ كنسج الدّرع وخَرْز الجِلد. واستعير لنظم الحديد. قال : ﴿وقدّر في

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٨٥.

(٢) انظر تفسير الطّبري ٢٢/ ٤٦ والجلالين.

(٣) انظر تفسير الطّبري ٢٢/ ٤٦.

(٤) المعجم الوسيط : «صفح».

(٥) انظر لسان العرب : «قدر».

(٦) لسان العرب : «سرد».

(٧) لسان العرب : «سرد».

السّرد﴾[1] والسِّراد والمِسْرد : المِثْقَب والمِخْصَف وما يُخْرزُ به[2] وسَرْد الدّرع نسجها، وهو تداخل الحَلَق بعضها في بعض[3] والسَّرْد : اسمٌ جامعٌ للدّروع وسائر الحَلَق وما أشبهها من عمل الخلق. وسمّي سَرْداً لأنّه يُسرَد فيُثْقَب طرفا كلّ حَلْقة بالمِسمار فذلك الحَلَق المَسْرد. والمِسْرد : هو المِثْقب، وهو السِّراد[4] والسَّرْد : الثَّقْبُ. والمسرودة : الدّرع المَثقوبة[5] وقوله عزّ وجلّ : ﴿وقدّر في السَّرد﴾ قيل : هو أن لا يجعل المسمار غليظاً والثَّقْب دقيقاً فَيَفْصِم الحَلَق، ولا يجعل المسمار دقيقاً والثَّقب واسعاً فيتقلقل أو ينخلع أو يتقصّف، اجعله على القَصْد وقَدّر الحاجة[6] والسّرد : الحَلَق[7] ويقول الطّبرى[8] : «اختلف أهل التّأويل في السّرد فقال بعضهم : السّرد هو مسمار حلق الدّرع... وقال آخرون : هو الحلق بعينها» قال مجاهد : لا تُدِقّ المسمار فيقلق في الحلْقة، ولا تغلّظه فيفصمها، واجعله بقَدَر[9].

وقلنا لداود عليه السّلام الّذى ألنّا له الحديد أن اعمل الدّروع السّابغات التّوامّ الكوامل الّتى يجرّها لابسها على الأرض من الحَلَق وكانت تُعْمَل قبله من صفائح الحديد. وقلنا له أيضاً أحسن تقديرك في السَّرْد واجعل الثَّقْب على قدر المسمار والمسمار على قدر الثَّقْب، فلا يكون المسمار دقيقاً فيقلق في الحَلْقة، ولا يكون

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «سرد» ١/٣٠٣.

(٢) لسان العرب : «سرد».

(٣) لسان العرب : «سرد».

(٤) لسان العرب : «سرد».

(٥) لسان العرب : «سرد».

(٦) لسان العرب : «سرد».

(٧) لسان العرب : «سرد».

(٨) تفسير الطّبرى.

(٩) تفسير ابن كثير ٦/٤٨٦.

غليظاً فيكسر الحلقة، وليكن الثَّقْب والمسمار على القصد وقدر الحاجة.

وأمرنا آل داود عليه السّلام بأن يعملوا معه صالح الأعمال الّتى أثيبهم عليها. إنّى بما تعملون يا آل داود بصير، فلا يخفى عليّ شيءٌ ممّا تعملون وسأثيبكم عليها.

وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾

ولسليمان الرّيح : وسخّرنا لسليمان الرّيح(١).

غدوّها : مسيرها من الغُدوة بمعنى الصّباح إلى الزّوال(٢) والغُدْوة، بالضّم(٣).

ورواحها : سيرها من الزّوال إلى الغروب(٤).

وأسلنا له عين القِطْر : وأذبنا له عين النُّحاس وأجريناها له(٥) والقِطر : النُّحاس المذاب(٦).

بإذن ربّه : بأمر الله له بذلك وتسخيره إيّاه له(٧).

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٤٧.

(٢) الجلالين.

(٣) لسان العرب : «غدا».

(٤) الجلالين.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٤٨.

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «قطر» ٢/ ٥٢٧.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٤٨.

ومن يزغ منهم عن أمرنا : ومن يزلّ ويعدل من الجنّ عن أمرنا الّذى أمرناه من طاعة سليمان[1].

نذقه من عذاب السّعير : في الآخرة. وذلك عذاب نار جهنّم الموقدة[2].

وسخّرنا لسليمان عليه السّلام الرّيح الملتئمة القويّة تجرى بأمره حيث أراد، وتكون طبيعتها كيف شاء، فتكون عاصفةً شديدة الهبوب تارة، ورخاءً ليّنةً تارةً أخرى. وقد أذاب الله تعالى لسليمان عليه السّلام عين النُّحاس. ويلاحظ بشأن داود عليه السّلام الأب أنّ الله تعالى قد ألان له الحديد. أمّا سليمان عليه السّلام الابن فإنّ الله تعالى قد جعل له مَعْدن النّحاس سائلاً في هيئة عين الماء المتدفّقة.

وسخّر الله تعالى لسليمان عليه السّلام من الجنّ من يعمل بين يديه، بإذنه عزّ وجل، ومن يأتمر بأمره. ومَنْ يَعْدِلْ منهم ويمل عن أمرنا لهم بطاعة سليمان عليه السّلام نذقه يوم القيامة من عذاب نار جهنّم الموقدة.

وإلى الرّيح العاصفة أشار قوله تعالى[3] : ﴿ولسليمان الرّيح عاصفةً تجرى بأمره إلى الأرض الّتى باركنا فيها. وكنّا بكلّ شيءٍ عالمين﴾ وإلى الرّيح اللّيّنة أشار قوله تعالى[4] : ﴿فسخّرنا له الرّيح تجرى بأمره رخاءً حيث أصاب﴾ أي حيث أراد.

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/٤٨ . .

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/٤٨ .

(٣) سورة الأنبياء ٨١.

(٤) سورة ص ٣٦.

يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾

من محاريب جمع مِحراب[1] والمحراب أصله في المسجد، وهو اسمٌ خُصَّ به صدر المجلس، فَسُمِّي صدر البيت محراباً تشبيهاً بمحراب المسجد[2] والمحراب مقدّم كلّ مسجد وبيت ومصلًّى[3].

وتماثيل : جمع تِمْثال، وهو كلّ شيء مثّلته بشيء. أي صور من نحاس وزجاج ورخام. ولم يكن اتّخاذ الصّور حراماً في شريعته[4].

وجفان : جمع جَفنة. والجَفنة خُصَّت بوعاء الأطعمة[5] وقيل للبئر الصّغيرة جفنة تشبيهاً بها[6].

كالجواب : وينحتون له ما يشاء من جفان كالجواب. وهي جمع جابية. والجابية الحوض الّذى يُجبَى فيه الماء[7] يقال : جَبَيْت الماء في الحوض جمعته. والحوض الجامع له جابية وجمعها جواب[8].

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/٤٨.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «حرب» ١/١٤٧.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/٤٨.

(٤) الجلالين.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «جفن» ١/١٢٢.

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «جفن» ١/١٢٣.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٢/٤٩.

(٨) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «جبى» ١/١١٤.

وقدور : جمع قدر، اسمٌ لما يُطْبَخ فيه اللّحم[1].

راسيات : عظام ثابتات في الأرض لا يزلن عن أمكنتهن[2] قال ابن زيد : مثال الجبال من عظمها يعمل فيها الطّعام من الكبر والعظم لا تحرّك ولا تنقل كما قال للجبال راسيات[3].

اعملوا آل داود شكرا : الشّكر تصوّر النّعمة وإظهارها. والشّكر ثلاثة أضرب : شكر القلب، وهو تصوّر النّعمة. وشكر اللّسان، وهو الثّناء على المُنْعِم. وشكر سائر الجوارح. وهو مكافأة النّعمة بقَدْر استحقاقه : ﴿اعملوا آل داود شكرا﴾ وذكر اعملوا ولم يقل اشكروا لينبّه على التزام الأنواع الثّلاثة من الشّكر بالقلب واللّسان وسائر الجوارح[4] وبذلك يكون الشّكر بالفعل كما يكون بالقول وبالنّيّة كما قال :

أفادتكم النَّعماءُ منّى ثلاثةً ** يدى ولسانى والضّمير المحجّبا[5]

وأخرج قوله : ﴿شكراً﴾ مصدراً من قوله : ﴿اعملوا آل داود﴾ لأنّ معنى قوله : ﴿اعملوا﴾ اشكروا ربّكم بطاعتكم إيّاه[6] وعليه يكون : ﴿شكراً﴾ مفعولاً مطلقاً لفعلٍ محذوف منصوباً بالفتحة[7] وهو مصدرٌ من غير الفعل أو أنّه مفعولٌ له[8] وأحبّ إليّ أن أُعْرِب : ﴿شكراً﴾ مفعولاً له أو لأجله.

يعمل الجنّ بإذن ربّهم جلّ وعلا لسليمان عليه السّلام ما يشاء من محاريب

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «قدر» ٢/ ٥١٣.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٤٩.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٤٩.

(٤) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى «شكر» ١/ ٣٥٠.

(٥) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٨٨.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٥٠.

(٧) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٣٠٠.

(٨) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٨٨ وانظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٣٠٠ هامش رقم ٢.

وأماكن للعبادة ومبانٍ تتصدّرها المحاريب وأماكن وقوف الأئمّة للصّلاة عماد كلّ دين، وينحتون له عليه السّلام التّماثيل والصّور الّتى يشاء من النُّحاس والزّجاج والرّخام. أمّا الصّدقات وإطعام الطّعام وإكرام الوفود فإنّ الجنّ ينحتون بأمر سليمان عليه السّلام من أجل ذلك الجفان الّتى تشبه في الضّخامة الحياض الّتى يُجمع فيها الماء، كما ينحتون القدور الضّخام الرّاسخات كالجبال، فهي ثابتةٌ لا تُحرَّك ولا تُنْقل، منْ أجل طبخ اللّحم فيها.

وأَمَرَ الحقّ جلّ وعلا آل داود عليه السّلام أن يعملوا الصّالحات، من أجل التّعبير عن الشّكر لله تعالى على نعمه العظيمة. وكون الشّكر لله تعالى بالقلب المفعم بالامتنان، واللّسان الّذى يلهج بذكر الله تعالى في كلّ حالٍ وآن. والجوارح الّتى تجازى إحسان الله تعالى إليها بالإحسان إلى عباد الله تعالى بالجوارح والأركان.

وتقرّر الآية الكريمة في التّذييل أنّ القليل من عباد الله هو الشّكور لمولاه، أمّا الكثير فإنّهم يتّسمون، والعياذ بالله، بالكفران.

وواضحٌ أنّ ظاهرة التّلاؤم الصّوتي تبلغ القمّة في قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿وجفان كالجواب وقدورٍ راسيات﴾.

إنّ ظاهرة التّلاؤم الصّوتيّ ترقى إلى ما يوافق مجزوء بحر الرّمل من الشّعر :

فعلاتن فاعلاتن ** فعلاتن فاعلاتن(١)

---

(١) انظر ـ مثلاً ـ موسيقى الشّعر للدّكتور إبراهيم أنيس ٣١٠ الطبعة الثانية ١٩٥٢م القاهرة مكتبة الأنجلو المصريّة.

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ
إِلَّا دَآبَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ
أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

فلمّا قضينا عليه الموت : فلمّا أمضينا قضاءنا على سليمان بالموت فمات(١).

دابّة الأرض : هي الأَرَضَة(٢) وهي دودة أو دُوَيْبّة تأكل الخشب ونحوه(٣).

منسأته : عصاه(٤) من نسأت البعير إذا زجرته ليزداد سيره(٥).

فلمّا خرّ : فلمّا خرّ سليمان ساقطاً بانكسار منسأته(٦).

ما لبثوا في العذاب المهين : المذلّ حولاً كاملاً بعد موت سليمان وهم يحسبون أنّ سليمان حيّ(٧).

فلمّا قضى الله تعالى على سليمان عليه السّلام بالموت ولحق بالرّفيق الأعلى وكان قائماً يصلّي في المحراب متّكئاً على عصاه(٨) ظلّ واقفاً لا تعلم الجنّ بموته، وهم الّذين كانوا يزعمون أنّهم يعلمون الغيب. وفي تلك الأثناء كانت الأَرَضَة تأكل العصا. فلمّا أصبحت نَخِرَةً ضعفت فانكسرت فخرّ سليمان عليه السّلام ساقطاً على الأرض. عند ذلك علمت الجنّ بموته وتبيّنت أنّهم لو كانوا يعلمون الغيب لعلموا بموت سليمان عليه السّلام وما لبثوا في العذاب المهين والعمل الشّاقّ حولاً كاملاً، ظنّاً منهم أنّه عليه الصّلاة والسّلام لا يزال على قيد الحياة.

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٥٠.

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٥٠.

(٣) المعجم الوسيط : «أرض».

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٥٠.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٥١.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٥١.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٥١.

(٨) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٥١.

(٣)

(كفرت سبأ نعم الله تعالى
فجعلها أحاديث ومزّقها
كل ممزّق)

الآيات (١٥ ـ ٢١)

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾

لقد كان لسبأ : سبأ بفتح أوّله وثانيه وهمز آخره وقصره : أرضٌ باليمن مدينتها مأرب، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيّام. فمن لم يصرف فلأنّه اسم مدينة، ومن صرفه فلأنّه اسم البلد، فيكون مذكّراً سمّي به مذكّراً(١) وسبأ اسم رجلٍ يجمع عامّة قبائل اليمن(٢) وهو سبأ بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قحطان. يُصْرَف ولا يُصْرَف ويمدّ ولا يمدّ(٣) وكانت سبأ ملوك اليمن وأهلها، وكانت التّبابعة منهم، وبلقيس صاحبة سليمان منهم(٤) وروى الإمام أحمد في مسنده أنّ فروة بن مُسَيك سأل النّبيّ ﷺ فقال : يا رسول الله أرأيت سبأً أوادٍ هو أو رجل أو امرأة أو أرض؟ قال : بل هو رجلٌ من العرب وُلِد له عشرة، فتيامن ستّة وتشاءم أربعة. تيامن الأزد والأشعريّون وحمير وكندة ومذحج وأنمار الّذين يقال لهم : بجيلة وخثعم. وتشاءم لخم وجذام وعاملة وغسّان(٥) وسمّيت هذه الأرض بهذا الاسم لأنّها كانت منازل ولد سبأ هذا(٦) وسبأ هي البلدة الّتي كانت تسكنها

---

(١) معجم البلدان : «سبأ» ٣/ ١٨١.

(٢) لسان العرب : «سبأ».

(٣) لسان العرب : «سبأ».

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٩١.

(٥) انظر تفسير ابن كثير ٦/ ٤٩١ و ٤٩٢ وتفسير الطّبري ٢٢/ ٥٣.

(٦) انظر معجم البلدان : «سبأ» ٣/ ١٨١.

بلقيس[1] وقصّتها مع سليمان عليه السّلام في سورة النّمل[2] وممّا جاء عن سليمان عليه السّلام والهدهد قوله تعالى[3] : ﴿وتفقّد الطّير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين. لأعذّبنّه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه أو ليأتينّي بسلطان مبين. فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين. إنّي وجدت امرأةً تملكهم وأوتيت من كلّ شيء ولها عرشٌ عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشّمس من دون الله وزيّن لهم الشّيطان أعمالهم فصدّهم عن السّبيل فهم لا يهتدون. ألاّ يسجدوا لله الّذى يخرج الخبء في السّماوات والأرض ويعلم ما تُخْفون وما تعلنون. الله لا إله إلاّ هو ربّ العرش العظيم. قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾.

وقد بنى سبأ بن يشجُب بن يعرب سدّ مأرب. ويقال إنّه مات قبل أن يستتمّه فأتمّه ملوك حمير بعده[4] ومأرب بهمزة ساكنة وكسر الرّاء والباء الموحّدة[5].

في مسكنهم آية : لقد كان لولد سبأ في مسكنهم علامةٌ بيّنةٌ وحجّةٌ واضحةٌ على أنّه لا ربّ لهم إلاّ الّذى أنعم عليهم النّعم الّتى كانوا فيها[6].

جنّتان : بدل من آية مرفوع[7] بستانان كانا بين جبلين[8].

عن يمين وشمال : عن يمين من أتاهما وشماله[9].

---

(١) لسان العرب : «سبأ».

(٢) سورة النّمل ٢٠-٤٤.

(٣) سورة النّمل ٢٠-٢٧.

(٤) معجم البلدان : «مأرب» ٥/ ٣٤.

(٥) معجم البلدان : «مأرب» ٥/ ٣٤.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٥٢.

(٧) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٢٠٣.

(٨) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٥٣.

(٩) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٥٣.

بلدةٌ طيّبة : بلدة خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذه أو هي[1] ولم يكن يرى في قريتهم بعوضةٌ قطّ ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حيّة. وإن كان الرّكب ليأتون وفي ثيابهم القمل والدّوابّ فما هم إلا أن ينظروا إلى بيوتهم فتموت الدّوابّ. وإن كان الإنسان ليدخل الجنّتين فيمسك القفّة على رأسه فيخرج حين يخرج وقد امتلأت تلك القفّة من أنواع الفاكهة ولم يتناول منها شيئاً بيده. والسّدّ[2] يسقيها[3].

وربٌّ غفور : ربّ خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديره المنعم[4].

لقد كان لسبأٍ في مدينتهم سبأ الّتى يسكنونها آيةٌ وعلامةٌ دالّةٌ على أنّه لا ربّ لهم سوى الله تعالى الّذى غمرهم بنعمه ووسعهم بفضله. وأبرز ما تتجلّى فيه تلك الآية الواضحة الجنّتان عن يمين من أتاهما وشماله. وقيل لهم : كلوا من رزق ربّكم عزّ وجلّ، واشكروا له نعمه العظيمة عليكم. هي بلدةٌ طيّبةٌ ففيها الخير الوفير، والعيش الهنيّ، والهواء النّقيّ، والماء السّلسبيل، والطّعام المرىء. والمنعم عليكم بتلك النعم ربٌّ غفورٌ لمن أذنب فبادروا إلى الاستغفار والتّوبة والإنابة،

فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾

فأرسلنا عليهم سيل العرم : العَرِم بفتح الرّاء وكسرها، وكذلك واحدها

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/٢/٣٠٢.

(٢) السّدّ بفتح السّين وضمّها الرّدم والجبل. لسان العرب : «سدد».

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/٥٣.

(٤) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/٢/٣٠٢.

وهو العَرَمة. والعَرِمة سدٌّ يُعْترض به الوادى، والجمع عَرِم. وقيل : العَرِم جمعٌ لا واحد له. وقال أبو حنيفة : العَرِم الأحباس تُبْنَى في أوساط الأودية[1] وفي الصّحاح : العَرِم المسنّاة لا واحد لها من لفظها. ويقال : واحدها عَرِمة[2] قال أبو عبيدة : العَرِم جمع العَرِمة وهي السِّكْر والمسنّاة الّتى تُسدّ بها المياه وتقطع[3] والسّكر بكسر السّين اسم السِّداد الّذى يُجْعَل سداً للشّقّ ونحوه. وكلّ شقٍّ سُدَّ فقد سُكِر. والسَّكْر بفتح السّين : سَدّ الشّقّ ومنفجر الماء[4] قال تعالى[5] : ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السّماء فظلّوا فيه يَعْرُجونَ. لقالوا إنّما سُكّرت أبصارنا بل نحن قومٌ مسحورون﴾ والمعنى، والله تعالى أعلم، ولو أنّ ربّ العزّة والجلال فتح على كفّار قريش المتعنّتين المصرّين على اقتراح الآيات بباعث العناد وليس بباعث نقص الحجّة، لو فتح ربّ العزّة والجلال عليهم باباً من السّماء فظلّوا في وضح النّهار يصعدون لقالوا إنّما غطّيت أبصارنا وسُدَّتْ بحاجزٍ خارجيّ، ،بالتّالى نحن لا نرى شيئا. بل نحن قومٌ مسحورون قد غلبت على أعيننا قوىً ساحرة خفيّة قادرةٌ على جعل أعيننا ترى غير شيءٍ شيئاً![6] وسَنَنْتُ التّراب : صببته على وجه الأرض صبّاً سهلاً حتّى صار كالمُسَنّاه[7] والمسنّاة بكلام حمير العَرِم[8].

وكان من أمر السّد أنّه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضاً سيول أمطارهم وأوديتهم. فعمد ملوكهم الأقادم فبنوا بينهما سداً عظيماً محكماً حتّى

---

(١) لسان العرب : «عرم».

(٢) لسان العرب : «عرم».

(٣) معجم البلدان : «العَرِم» ٤/ ١١٠.

(٤) لسان العرب : «سكر».

(٥) سورة الحجر ١٤ و ١٥.

(٦) انظر ـ مثلا ـ التفسير البسيط ١٤/ ٤٠.

(٧) لسان العرب : «سنن».

(٨) تفسير الطبرى ٢٢/ ٥٤.

ارتفع الماء وحُكِم على حافّات ذينك الجبلين، فغرسوا الأشجار واستغلّوا الثّمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن[1] وجعلوا في ذلك السّد ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض، فكانوا يسقون من الباب الأعلى، ثمّ من الثّانى، ثمّ من الباب الثّالث[2] وبَنَتْ حِمْيَر من دون السّدّ بركة ضخمة فجعلت فيها اثني عشر مخرجاً على عدّة أنهارهم[3] وسدّ مأرب بين ثلاثة جبال يصبّ ماء السّيل إلى موضع واحد. وليس لذلك الماء مخرجٌ إلاّ من جهةٍ واحدة. فكان الأوائل قد سدّوا ذلك الموضع بالحجارة الصُّلبة والرَّصاص فيجتمع فيه ماء عيون هناك مع ما يغيض من مياه السّيول فيصير خلف السدّ كالبحر، فكانوا إذا أرادوا سقي زروعهم فتحوا من ذلك السّدّ بقدر حاجتهم بأبوابٍ محكمة وحركات مهندسة فيسقون حسب حاجتهم ثمّ يسدّونه إذا أرادوا[4] ويقول الفرّاء[5] وقوله : ﴿سيل العرِم﴾ كانت مُسَنّاة[6] كانت تحبس الماء على ثلاثة أبواب منها، فيَسقون من ذلك الماء من الباب الأوّل ثمّ الثّانى، ثمّ الآخر، فلا ينفَد حتّى يثوب الماء من السّنة المقبلة».

أكل : ما يؤكل بضمّ الكاف وسكونه[7].

خمط : البرير وهو ثمر الأراك[8].

وأثل: هو الّذى يقال له الطّرفاء، وقيل شجرٌ شبيهٌ بالطّرفاء غير أنّه أعظم منها[9].

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٤٩٤.

(٢) مجمع الأمثال للميدانى ١/ ٢٧٩ مثل رقم ١٤٥٤ تحقيق الأستاذ محمّد محي الدّين عبد الحميد الطّبعة الثّانية ١٣٧٩هـ ١٩٥٩م مصر

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٥٤.

(٤) معجم البلدان : «مأرب» ٥/ ٣٥.

(٥) معانى القرآن للفرّاء ٢/ ٣٥٨.

(٦) بناءٌ في الوادى ليردّ الماء، وفيه مفاتح للماء بقدر ما يحتاج إليه.

(٧) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «أكل» ١/ ٢٤.

(٨) معانى القرآن للفرّاء ٢/ ٣٥٩.

(٩) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٥٦. (١) المعجم الوسيط : «سدر».

سِدْر : السِّدر شجر النَّبق واحدته سِدْرة[1].

أعرضت سبأ عن الشّكر لله تعالى على نعمه وآلائه، وكفرت بأنعم الله تعالى، فأرسل الله تعالى عليهم سيل العرم والماء الغزير الّذى كان يحجزه السّدّ وراءه بعد أن دمّر الله تعالى ذلك السّدّ تدميرا. وبدّلهم الله تعالى بالجنّتين عن يمين البلاد وشمالها جنّتين فقيرتين قوامهما ثمر الأراك الّذى لا يكاد يُغْنى والطَّرْفاء وشيءٌ قليل من شجر النَّبق.

جزيناهم ذلك بسبب كفرهم نعم الله تعالى. والله تعالى إنّما يعاقب الكفور للنّعم الجحود للآلاء.

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً
وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾
فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ
أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ ﴿١٩﴾

وبين القرى الّتى باركنا فيها : هي الشّام[2].

قرىً ظاهرة متّصلة[3] ومتواصلة. كان أحدهم يغدو فيقيل في قرية، ويروح فيأوى إلى قرية أخرى[4].

وقدّرنا فيها السّير : وجعلنا بين قراهم والقرى الّتى باركنا فيها سيراً مقدّراً

---

(١) المعجم الوسيط : «سدر».

(٢) تفسير الطّبرى ٢٢/٥٧.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/٥٨.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/٥٨.

مـــن منزلٍ إلى منزلٍ وقـريةٍ إلى قرية. لا يتزلون إلاّ في قـرية، ولا يغدون إلاّ مـــن قرية(١).

آمنين : لا تخافون في ليلٍ ولا في نهار(٢).

فقالوا ربّنا باعد بين أسفارنا : فاجعل بيننا وبين الشّام فلوات ومفاوز لنركب فيها الرّواحل ونتزوّد معنا فيها الأزواد(٣).

فجـعلناهم أحاديث : جـعلناهم حـديثاً للنّاس، وسَـمَراً يتحـدّثون به مِنْ خبـرهم، وكـيف مكر الله بهم، وفرّق شـملهم بعد الاجـتمـاع والأُلفة والعـيش الهنـــيء(٤).

ومزّقناهم كلّ ممزّق : فرّقناهم في البلاد كلّ التّفريق(٥) أمّا غسّان فقد لحقوا بالشّام، وأمّـا الأنصار فلحقـوا بيثرب، وأمّـا خزاعة فلحقـوا بتهامـة، وأمّا الأزد فلحقوا بعُمان(٦) وضربت العرب بهم المَثَل في الفرقة(٧) فقالوا : ذهبوا أيدي سَبا، وتفرّقوا أيدي سبا، أي تفرّقوا تفـرّقا لا اجتماع معه(٨) شُبّهوا بأهل سبأ لمّا مزّقهم الله في الأرض كلّ ممزّق، فـأخـذ كلّ طائفـة منهم طريقـاً على حِـدة. واليـد : الطّريق، يقال : أخذ القوم يد بَحْـر. فقيل للقوم إذا تفرّقوا في جهـات مختلفة : ذهبوا أيدي سبا، أي فرّقتهم طرقـهم الّتى سلكوها كما تفرّق أهل سبأ في مذاهب شتىّ. والعرب لا تهـمز سبا في هذا الموضع لأنّه كثـر في كلامهم فاستـثقلوا فيه

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/٥٨.

(٢) الجـــلالين.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/٥٩.

(٤) تفسير ابن كثير ٦/٤٩٧.

(٥) الجـــلالين.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٢/٥٩.

(٧) لسان العرب : «سبأ».

(٨) مجمع الأمثال للميدانى ١/٢٥٧ مثل رقم ١٤٥٤.

الهمزة، وإن كان أصله مهموزا[1].

بالإضافة إلى النّعيم المقيم الّذى كان فيه أهل سبأ، بفضل الله تعالى ثمّ بفضل سدّ مأرب الّذى وفّقهم الله تعالى لبنائه، جعل عزّ وجلّ بين قراهم في اليمن وقرى الشّام الّتى بارك الله تعالى فيها دينياً، فهي أرض النّبوّات، ودنيوياً، فهي أرض الخيرات، جعل عزّ وجلّ بينهم وبين الشّام قرًى متّصلة ومتواصلة، فلا يخافون إلا الله تعالى، ولا يحتاجون لحملٍ زادٍ أو ماء. وجعل عزّ وجلّ المسافة بين القرى مقدّرةً ومضبوطة بمقدار راحة المسافرين وسعتهم، فلا يجدون شيئاً من مشقّة لبُعْد الشّقّة. وقيل لأهل سبأ : سيروا في تلك القرى آمنين مطمئنّين، تقيلونَ في قرية، وتنامون في أخرى، لا تخافون في ليلٍ ولا نهار.

لقد كان المفروض في أهل سبأ أن يبادلوا إحسان الله تعالى بالإحسان، وذلك بالشّكر لله تعالى والامتنان، ولكنّهم بَطِروا النّعمة، وبادلوا إحسان الله تعالى إليهم بالكفران، والجحود والعصيان. إنّهم يدعون الله تعالى أن يباعد بين القرى في أسفارهم كي يبتزّوا الفقراء والضعفاء والشّيوخ والنّساء والصّبيان وذلك يحملهم على دفع أجرة الرّكوب، وثمن الطّعام والشّراب، وربّما فرض الإتاوات على القوافل كي يحموها، حسب زعمهم، من اللّصوص وقطّاع الطّرق. وظلموا أنفسهم بكفرهم وعصيانهم وجحود نعم الله تعالى عليهم، بل وسؤال الله تعالى بزوال نعمة القرى المتّصلة، فاستجاب الله تعالى دعاءهم. إنّ الله سبحانه وتعالى جعلهم حديث النّاس في سَمَرهم ولهو المدلج السّارى، فجرى على كلّ لسان المثل المشهور : ذهبوا أيدي سبا، وتفرّقوا أيدي سبا. ومزّقهم الله تعالى كلّ ممزّق، وفرّقهم كلّ تفريق، وقطّعهم كلّ تقطيع. إنّ في ذلك المذكور ممّا حلّ بسبأ بسبب بطرهم معيشتهم لآيات وعظات وعبراً لكلّ صبّار شديد الصّبر على البلاء والطّاعات وعن المعاصى، شكور عظيم الشّكر لله تعالى على النّعم والآلاء.

إنّ على كفّار مكّة أن يعتبروا وإلاّ كان مصيرهم كمصير سبأ.

---

(١) لسان العرب : «سبأ».

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

ولقد صدّق عليهم إبليس ظنّه : قال إبليس ظنّاً منه بغير علم كما جاء - مثلاً - في سورة الأعراف(١) : ﴿قال فبما أغويتنى لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم. ثمّ لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ وجاء في سورة ص(٢) : ﴿قال فبعزّتك لأُغوينّهم أجمعين. إلاّ عبادك منهم المخلَصين﴾ ثمّ صدّق ظنّه ذلك فيهم فحقّق ذلك بهم وباتّباعهم إيّاه(٣) .

وما كان له عليهم من سلطان : وما كان لإبليس على هؤلاء القوم مِنْ حُجّةٍ يضلّهم بها إلاّ بتسليطناه عليهم(٤) .

ولقد صدّق إبليس اللّعين على هؤلاء الكافرين وأمثالهم ظنّه بغير علمٍ بأنّه سوف يُغْوى ذرّيّة آدم عليه السّلام ويستأصلهم بالتّهييج على الذّنوب والآثام إلاّ عباد الله تعالى المخلَصين. وكان تصديق ظنّ اللّعين وحَدْسه وتهديده باتّباع النّاس له إلاّ فريقاً من المؤمنين هم عباد الله تعالى المخلَصون.

وما كان لإبليس اللّعين على الّذين اتّبعوه من سلطان ولا حجّة سوى دغدغة الأتباع من جهة الشّهوات الّتى يسهّلها لهم، والأمانيّ الّتى ليس لها رصيدٌ من

---

(١) الآية ١٦ و ١٧.

(٢) الآية ٨٢ و ٨٣.

(٣) انظر تفسير الطّبرى ٢٢/ ٦٠ وتفسير ابن كثير ٦/ ٥٠٠.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٦٠.

الواقع فيزيّنها لهم، وأحلام اليقظة الّتى ينقلهم إلى أجوائها ويحلّق بهم في آفاقها.

والله سبحانه وتعالى إنّما جعل للّعين القدرة علي هذه الوسائل الشّيطانيّة، والطّرائق الإبليسيّة، ليعلم عزّ وجلّ علم ظهورٍ من يؤمن بالآخرة فيعمل لها بطاعة الله تعالى ومعصية اللّعين، ومن هو من الآخرة في شكٍّ وارتياب فيتّبع الشّيطان الرّجيم ويعصى الرّحمن الرّحيم.

وربُّك يا محمّد ويا أيّها الإنسان على كلّ شيءٍ حفيظ ووكيل ورقيب، فاستمسك بحبله، وعَضَّ بالنّواجذ على هديه كما يتبيّن في آي الذّكر الحكيم والسّنّة المطهّرة.

(٤)

(الآلهة المزعومة عاجزةٌ في الأولى والآخرة،
والله تعالى قادرٌ على كلّ شيء، فآمنوا به،
وبرسوله، وبقرآنه، وباليومِ الآخر،
وإلاّ كان العذاب أليما)

الآيات (٢٢ ـ ٣٣)

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

قل يا محمّد لكفّار مكّة ادعوا الّذين زعمتم أنّهم آلهةٌ من دون الله تعالى كي ينفعوكم ويدفعوا الأذى عنكم. إنّهم لا يملكون وزن أصغر نملة في السّماوات ولا في الأرض على سبيل الخلق، وليس لهم في السّماوات ولا في الأرض من شيءٍ على سبيل الشّراكة مع الله تعالى، وليس لله تعالى من الآلهة المزعومة معينٌ على خلق شيءٍ وحفظه وتدبيره. إنّ لله تعالى وحده ولا شريك له الخلق والأمر، فينبغي أن يفرد بالعبادة وحده دون سواه.

وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

ولا تنفع الشّفاعة عنده إلاّ لمن أذن له : زعم مشركو مكّة أنّهم ما يعبدون الأصنام من دون الله تعالى إلاّ لتقرّبهم الأصنام من الله تعالى وترفعهم منزلة وتزيدهم حظوة[1] قال تعالى[2] : ﴿ ألا لله الدّين الخالص. والّذين اتّخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا إلى الله زُلْفى إنّ الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون. إنّ الله لا يهدى من هو كاذبٌ كفّارٌ﴾ والآية الكريمة تفنّد زعمهم. إنّ الشّفاعة لا تكون إلاّ بإذنه عزّ وجلّ ولا تكون إلا لِمَنْ رضي الله تعالى عنه بأن

(١) بضم الحاء وكسرها.

(٢) سورة الزُّمر ٣.

شهد في الدّنيا أنّه لا إله إلاّ الله[1].

حتّى إذا فزّع عن قلوبهم : أي أزيل عنها الفزع[2] وكُشف عنها الخوف[3] والفزع بالإذن فيها[4] وجلّي عن قلوبهم وكُشف عنها الفزع وذهب[5] والفزع : الفَرَق والذّعر من الشّيء[6] قال بعض أهل التّأويل : الّذين فُزِّع عن قلوبهم الملائكة. قالوا : وإنّما يفزّع عن قلوبهم من غشية تصيبهم عن سماعهم الله بالوحي[7] عن النّوّاس بن سمعان قال : قال رسول الله ﷺ : إذا أراد الله أن يوحي بأمره تكلّم بالوحي. فإذا تكلّم أخذت السّماوات منه رجفة أو قال رِعدة[8] شديدة من خوف الله. فإذا سمع بذلك أهل السّماوات صَعِقُوا وخرّوا لله سجّدا. فيكون أوّل من يرفع رأسه جبريل فيكلّمه الله من وحيه بما أراد. فيمضى به جبريل على الملائكة، كلّما مرّ بسماء سأله ملائكتها : ماذا قال ربّنا يا جبريل؟ فيقول : قال : الحقّ وهو العليّ الكبير. فيقولون مثل ما قال جبريل. فينتهى جبريلّ بالوحي حيث أمره الله من السّماء والأرض[9] عن الشّعبيّ قال قال ابن مسعود في هذه الاية : ﴿حتّى إذا فزّع عن قلوبهم﴾ قال : إذا حدث أمرٌ عند ذى العرش سمع مَنْ دونه من الملائكة كجرّ السّلسلة على الصّفا[10] فيغشى عليهم. فإذا ذهب

---

(١) انظر ـ مثلا ـ التّفسير البسيط ١٧/ ٦٢ في تفسير الآية الكريمة ٢٨ من سورة الأنبياء.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني : «فزع» ٢/ ٤٩٠.

(٣) لسان العرب : «فزع».

(٤) الجلالين أي بالإذن في الشّفاعة.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٦٢.

(٦) لسان العرب : «فزع»

(٧) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٦٢.

(٨) بفتح الرّاء وكسرها الاضطراب يكون من الفزع وغيره.

(٩) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٠٤ وتفسير الطّبرى ٢٢/ ٦٣.

(١٠) الصّفا جمع الصّفاة وهي الحجر العريض الأملس.

الفزع عن قلوبهم تنادوا ماذا قال ربّكم قال : فيقول من شاء : قال الحقّ وهو العليّ الكبير(١).

الحقّ : مفعول به لفعلٍ محذوف. وهو في الأصل نعتٌ لمنعوتٍ محذوفٍ والتّقدير : قالوا قال القول الحقّ(٢).

وقد علّق الطّبرى على جملة الآراء الّتى ذكرها بشأن الّذين فزّع عن قلوبهم قائلاً(٣) : «وأَوْلى الأقوال في ذلك بالصّواب القول الّذى ذكره الشّعبيّ عن ابن مسعود لصحّة الخبر الّذي ذكرناه عن ابن عبّاس(٤) عن رسول الله ﷺ بتأييده. وإذْ كان ذلك كذلك فمعنى الكلام : لا تنفع الشّفاعة عنده إلاّ لمن أذن له أن يشفع عنده. فإذا أذن الله لمن أذن له أن يشفع فزع لسماعه إذْنَه. حتّى إذا فزّع عن قلوبهم فجلّي عنها وكشف الفزع عنهم قالوا ماذا قال ربكم قالت الملائكة الحقّ. وهو العليّ على كلّ شيء، الكبير الّذى لا شيء دونه».

ولا تنفع الشّفاعة عنده عزّ وجلّ يوم القيامة إلاّ لمن آذن الله تعالى له أن يشفع لمن رضي الله تعالى عنه بأن شهد في الدّنيا أنّه لا إله إلاّ الله. حتّى إذا كُشف الفزع عن الملائكة من غشية تصيبهم إذا قضى الله تعالى أمراً وسمعوا الله تعالى بالوحي وحتّى إذا جُلّي عن قلوبهم الفَرَق والذّعر بالإذن في الشّفاعة، قال بعض الملائكة لبعضٍ استبشاراً : ﴿ماذا قال ربّكم﴾ قالوا قال القول الحقّ. وهو عزّ وجلّ الأعلى من كلّ عال، الأكبر من كلّ كبير، الّذى ذلّت كلّ الرّقاب لعزّته، وخضعت كلّ الوجوه لعظمته جلّ وعلا.

---

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٦٢.

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٤٠٨.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٦٤.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٦٣ وانظر الحديث الّذي رواه أبو هريرة في فتح البارى ٨/ ٥٣٧ حديث رقم ٤٨٠٠و٨/ ٣٨٠ حديث رقم ٤٧٠١.

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا ۖ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

وإنّا أو إيّاكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين : هذا من باب اللّفّ والنّشر(١) وهو أن يُذْكر متعدّد، ثمّ يذكر ما لكلٍّ من أفراده شائعاً من غير تعيين، اعتماداً على تصرّف السّامع في تمييز ما لكلّ واحد منها وردّه إلى ما هو له(٢) فإن قلت : كيف خولف بين حرفي الجرّ الدّاخلين على الحقّ والضّلال. قلت : لأنّ صاحب الحقّ كأنّه مستعلٍ على فرسٍ جوادٍ يركضه حيث شاء، والضّال كأنّه منغمسٌ في ظلام مرتبك فيه لا يدرى أين يتوجّه(٣).

أَجْرَمْنا : نَحْنُ مِنْ جُرْمٍ وركِبْنا من إثم(٤).

يفتح بيننا بالحقّ : يقضى بيننا بالعدل(٥) ويحكم(٦).

وهو الفتّاح العليم : والله القاضى العليم بالقضاء بين خلقه لأنّه لا تخفى عنه خافية ولا يحتاج إلى شهود تعرّفه المحقّ من المبطل(٧) وهو الحاكم العادل

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٥٠٤.

(٢) جواهر البلاغة للسيّد أحمد الهاشمى ٣٧٦.

(٣) الكشّاف ٢/ ٥٦٢.

(٤) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٦٥.

(٥) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٦٥.

(٦) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٦٥.

(٧) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٦٥.

العالم بحقائق الأمور(١).

الآيات الكريمات دروسٌ قرآنيّةٌ في أدب الحوار مع الطّرف الآخر وإن كان مشركاً. إنّ ثمّة إنصافاً للخصم واحتراماً له. وإنّ ثمّة هضماً للذّات أحياناً. وإنّ ثمّة فراراً إلى أحكم الحاكمين. وإنّ ثمّة توضيحاً لخطأ الخصم، وإعلاناً للبديل الصّحيح، وتبييناً لوجه الحق المليح.

تأمر الاية الكريمة الأولى المصطفى ﷺ أن يسأل كفّار مكّة : من يرزقكم من السّماوات الماء ـ مثلاً ـ ومن الأرض النّبات مثلاً؟ إنّهم يعرفون الجواب لأنّهم معترفون بتوحيد الرّبوبيّة. وهو توحيد الله تعالى بأفعاله فهو الخالق والرّازق والمحيي والمميت وهكذا. وتأكيداً للجواب الّذى يعرفونه والّذى لا جواب سواه يلقّن الحقّ جلّ وعلا حبيبه ﷺ ذلك الجواب : ﴿قل الله﴾.

وبما أنّ الكافرين لن يرتّبوا على المقدّمة الصّحيحة النّتيجة الصّحيحة، فلم يرتّبوا على توحيد الرّبوبيّة توحيد الألوهيّة، وهو توحيد الله تعالى بأفعال العباد بأن يفردوه بالعبادة وحده لا شريك له فقد كان التّنبيه على هذا الخطأ الجسيم من القوم، بل على الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى وهو الشّرك، في أنبل معنى، وأعفّ كلام. قال تعالى : ﴿وإنّا أو إيّاكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين﴾ إنّ المؤمنين بفضل الله تعالى متمكّنون من الهدى ومستعلون عليه، وإنّ هذا القول يومئ إلى أنّ المؤمنين هم المهتدون، وإلى أنّ الكافرين هم الضّالّون، بسبب اللّفّ والنّشر، والتّوافق الدّاخليّ في ترتيب عناصر اللّفّ والنّشر. ومع ذلك فهذه الطّريقة لا تثير حفيظة الخصم، لأنّه يرى فيها إنصافاً كبيراً له. لقد تقدّم ضمير المتكلّمين وتقدّم إثره الاستعلاء على الهداية. وذلك ما يعتقده المؤمنون وما لا يعتقده الكافرون، فاحتمال العكس وارد. وقد تأخّر ضمير المخاطبين وتأخّر إثره حَيْرةُ الكافرين في الضّلال المبين، وذلك ما يعتقده المؤمنون وما لا يعتقده الكافرون، فاحتمال العكس وارد. وكأنّ المعنى الّذى يفهمه الخصم : وإنّا لعلى هدىً أو في ضلالٍ مبين أو أنتم لعلى هدىً أو في ضلالٍ مبين. ولمّا كان أحد

(١) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٥٠٥.

الفريقين يجب أن يكون على هدىً والآخر في ضلالٍ مبين كان التّعبير القرآنيّ المعجز الّذى يلمّح ولا يصرّح بأنّ المؤمنين على هدى، والّذى يلمّح ولا يصرّح بأنّ الكافرين في ضلال مبين.

ويتأكّد إحساس الخصم بالإنصاف والعدل حينما يهضم المؤمن ذاته في الآية الكريمة التّالية. والمعنى : قل يا محمّد للكافرين لا تُسْألون عمّا نرتكب من جُرْم ونأتى من إثم، ونحن لا نُسْأل عمّا تعملون وتفعلون. إنّ هذه الآية الكريمة الثّانية تعيد التّوازن إلى نفس الخصم لأنّه يشعر يقيناً بأنّ الآية الكريمة السّابقة إن كان حظّه فيها على الحقيقة مبخوساً أو ليس مساوياً لحظّ المؤمنين، فإنّ حظّه في الآية الكريمة موفور. وربّما يشعر في أعماقه بجمعه الحظّين في الآيتين الكريمتين لكلّ فريق أنّ مجموع خطه في النّهاية هو الموفور.

وفي الآية الكريمة الثّالثة يأمر الحقّ جلّ وعلا حبيبه ﷺ بأن يقول للكافرين بأنّ الله سبحانه وتعالى سوف يجمع بين الفريقين يوم القيامة ثمّ يحكم بينهما بالحقّ، وهو عزّ وجلّ الحاكم والقاضى، وهو عزّ وجلّ العليم الّذى لا يخفى عليه شيء، فحكمه العدل، وقوله الفصل.

وفي الآية الكريمة الرّابعة يأمر الحقّ جلّ وعلا حبيبه ﷺ بأن يقول للمشركين عابدى الأصنام والأوثان، أروني هؤلاء الّذين ألحقتم به عزّ وجلّ وعلا في العبادة وأعلموني الّذى خلقوه في هذا الكون. إنّهم لا يملكون مثقال ذرّةٍ في السّماوات والأرض فكيف يُعبَدون مع الله تعالى. وهلاّ هجر القوم الشّرك. وهلاّ ضمّ القوم إلى توحيد الرّبوبيّة توحيد الألوهيّة فأفردوا الله تعالى العزيز الحكيم بالعبادة.

وهكذا يبدو طريق الحقّ واضحاً معبّداً، والويل كلّ الويل لمن هجر الصّراط المستقيم، وألقى بنفسه في الهاوية.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ
بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾

كافّة : حال من النّاس منصوبة(١) قدّم للاهتمام(٢) أي أرسلناك للنّاس أجمعين، العرب منهم والعجم، والأحمر والأسود(٣).

هذه الآية الكريمة من سورة سبأ الكريمة المكّيّة تقرّر أنّ الحقّ جلّ وعلا ما أرسل محمّداً ﷺ إلاّ للنّاس أجمعين، وأن رسالته عليه الصّلاة والسّلام عالميّةٌ منذ فجرها. وتأكيداً لعالميّة الرّسالة المحمّدية يتكرّر هذا المعنى في المكّيّ من القرآن الكريم، الّذى نزل قبل هجرة المصطفى ﷺ إلى المدينة المنوّرة. جاء في سورة الفرقان(٤) قوله تعالى : ﴿تبارك الّذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا﴾ وجاء في سورة الأعراف(٥) قوله تعالى : ﴿قل يا أيّها النّاس إنّى رسول الله إليكم جميعاً الّذى له ملك السّماوات والأرض لا إله إلاّ هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النّبيّ الأمّيّ الّذى يؤمن بالله وكلماته واتّبعوه لعلّكم تهتدون﴾.

إنّ الله سبحانه وتعالى أرسل حبيبه محمّداً ﷺ للنّاس أجمعين، مبشّراً المؤمنين بجنّات النّعيم، ومنذراً الكافرين بنار الجحيم، ولكنّ أكثر النّاس، وفي مقدّمتهم كفّار مكّة، لا يعلمون هذه الحقيقة، ويجهلون أنّ ابن مدينتهم البار هو خاتم النّبيّين، وأشرف المرسلين، ورسول ربّ العالمين إلى النّاس أجمعين.

ثبت في الصّحيحين عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : أعطيت خمساً

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ١٠/ ٣١١.

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير الطّبرى ٢٢/ ٦٦.

(٤) الآية ١.

(٥) الآية ١٥٨.

لم يعطهنّ أحد من الأنبياء قبلي : نُصِرْت بالرّعب مسيرة شهر. وجعلت لي الأرض مسجداً وطهورا، فأيُّما رجلٍ من أمّتي أدركته الصّلاة فليصلّ. وأحلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي. وأعطيت الشّفاعة. وكان النّبيّ يبعث إلى قومه وبعثت إلى النّاس عامّة[1].

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾
قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

ويقول هؤلاء الكافرون على سبيل الاستبعاد للعذاب وعدم الإيمان بيوم القيامة : متى هذا الوعد بالعذاب إن كنتم صادقين فيما تقولون؟.

قل لهم يا محمّد وقل لهم أيّها المؤمن لكم ميعاد يوم محدّد لا تستأخرون عنه ساعةً لتوبةٍ أو معذرة، ولا تستقدمون عنه على سبيل استبطائكم له واستهزائكم به.

(١) تفسير ابن كثير ٦/٥٠٦.